دروس من قصة نوح عليه السلام

يقول الله عز وجل : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣] .

يقول الله عز وجل : ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٣٠، ٣١] .

من معانى الآيات الكريمة :

١ ـ تقليل من قوة الأشراف . إزاء قوة الله تعالى والتى لا تقاوم .

٢ ـ الآية تهدم الأسس التى بها يقدر الناس بها بعضهم بعض وهى : المال ، والكهانة ، والملكية .

ذلك بأن الناس يبذلون ولاءهم لواحد من ثلاث :

١ ـ غنى يرجون نفعه . ومدع العلم بالغيب . وملك من السماء ، وقد هدم كل هذه الأسس ولفت الأنظار لأسس التقدير الحقيقية وهى : الأسس النفسية . ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

٣ ـ تعليم لعدم البتّ فى الأمر بدون علم ويقين .

ومن دروس قصة نوح عليه السلام :

١ ـ دعاهم إلى الاستغفار : إلى التوبة وهو ينعم عليكم بأنهار . . لانهر . وجنات لا جنة واحدة .

٢ ـ ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١] : إشارة إلى أن اتباعهم لظاهر الحياة . . لا لأخلاقهم النفسية .

نذير : يبين موجبات العذاب لا مجرد مخوّف فقط.

٣ ـ ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦] قال ذلك بعد ألف سنة تأكد له فيها جحودهم .

٤ ـ أذهب الله عنهم النعم .. ثم علق رجوعها باستغفارهم وتوبتهم .

٥ ـ تسلية لرسول الله ﷺ .

٦ ـ إنما يأتيكم به الله إن شاء .

أى : يأتيكم الذى عصيتموه .. ومعنى ذلك أنه خارج عن قدرة البشر .

٧ ـ غريزة التقليد : ما سمعت بهذا ..

٨ ـ بشر منكم : وهو : احتقار لأنفسهم أن يكون مثلهم رسولاً نبيًا .

٩ ـ الالتجاء إلى الله تعالى فى نهاية المطاف .

وتذكر : خالد وعمرو رضى الله عنهما : أسلموا فى السنة السابعة للهجرة وبعد عشرين عامًا من البعثة .

فلابد من الصبر وطول النفس .. مهما عاند المكابر .. فلعله أن يكون على موعد مع الإسلام يومًا .

• • •

الاعتراف بالآخر

يقول أحد الباحثين :

على الرغم من أن الإنسان يعتبر سيد الأرض ، يسخر إمكاناتها لخدمته متطلعًا بغير حدود للتقدم العلمى ليحمله عبر آفاق الطموح غير المحدود ، فإن طفل الإنسان يولد ضعيفًا هشا لا يستطيع البقاء يوما واحداً دون الاعتماد على غيره ، ليطعمه ويعتنى به ، وهو فى هذا يكون أضعف من طفل السمك ، وطفل الحشرات وطفل الهوام ، الذى يولد قادراً على الاعتماد على نفسه دون حاجة

للآخر . . فيكون هذا أول درس للإنسان ، ليعرف أنه غير قادر على الحياة فى غيبة « الآخر » .

يبدأ الإنسان حياته طفلا متفوق الذكاء إلا أنه لا يستطيع أن يرى نفسه أو يتعرف عليها إلا من خلال مشاهدته للآخر فيرى كيف يلهو ويقفز ويجرى الآخر، فيتعلم كيف يحاكيه ، ويبدأ فى التعرف على نفسه بمقارنة نفسه بالآخر ، فيقلد ما يحبه من فعل الآخرين ، وينأى بنفسه عن محاكاة الآخر فيما لا يحبه من تصرفات ، فإذا رغب الإنسان امتهان مهنة كان معلمه فيها هو الآخر ودون الآخر لا تستطيع الأنا أن تتعلم حرفة يملك الآخر مفاتيح تفوقها ، وكل « أنا » تحتاج إلى « الآخر » ليقيمها ويعطيها درجات نجاحها ، فتعرف الأنا بهذا ترتيب موقعها من المجموع تفوقًا أو ما دون ذلك .

وتقف « الأنا » عاجزة مسلوبة الحيلة فى أكثر الأمور التى تخصها فى غيبة الآخر ، وخصوصًا فى مجال طب العيون والأسنان والأنف والأذن والحنجرة والجراحة وأمور الولادة . . أما وقد أصبحت « الأنا » صاحبة مهنة ولها حرفة ذات منتج على اختلاف مسماه إلا أنه من عجب أن « الأنا » لا تستطيع أن تحيا مستهلكة لإنتاجها فقط ، فلا يستطيع زارع القمح أن يحيا على القمح ، ولا زارع البطيخ أن يحيا على البطيخ ، ولا ناقل البضائع أن ينقل بضائعه فقط ، ولا مؤلف الكتاب أن يكون القارئ الأوحد لكتابه .

وفى هذا ، فإن إنتاج الأنا مقصود به التوجه للآخر الذى يقيمه ويشتريه .

وفى واقع الأمر ، فإن الآخر هو أكثر أهمية للأنا من الأنا ذاتها ، إذ أنه دون الآخر لا تتوافر لـ « الأنا » مقومات بقائها على قيد الحياة ، فلعلنا جميعًا كل فى أناته يتعامل مع الآخر من واقع هذه الحقيقة الثابتة ، فيقيم محاور الود والترحاب للآخر ، معترفا بفضله كمكون رئيسى فى قدر النجاح الذى على كل منا أن يحققه ليس من واقع القسمة والنصيب ، وإنما بفعل النسبة والنصاب لوسائلى

وأدواتى فى الاعتراف بفضل الآخر كمحقق رئيسى لنصيبى من النجاح . ا . هـ.

• • •

ماذا يريدون

إنهم يريدون : التباس الحق بالباطل : لفظ يحتمل الحق والباطل . فيمسك كل فريق بمعنى . . وكل يظن الحق معه . .

وواجب الداعية : فض هذا الاشتباك ليتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . .

«إن الاستشراق . والاستعمار ، والتبشير أشبه بالحلقات الثلاثة المتداخلة التى يتخذها « التعاون » شارة له دلالة على قوة التماسك »[1] .

ويفرض علينا الحق أن نكشف النقاب عن سبب الأسباب فى نظرة خصومنًا إلينا وهو : سوء تطبيق الأحكام الإسلامية فرأى خصومنا الإسلام من خلال هذا العوج . .

لكن الإسلام شىء وسلوك أتباعه ليس حجة عليه .

إنهم يعملون فى صمت . وحكمة أما نحن : فمشغولون : بماذا ؟!! لا نملك إلا عقيرة نجأر بها . .

وصحيح أن لنا على ذلك ثوابا . . لكن ذلك الصوت العالى قد يصرخ فى ناحية . . وإن نجح فى لفت الأنظار إلى الخطر المحدق بنا : وهو تنبيه لأعدائنا . . ليعدوا العدة لضربنا !

• • •

(١) الإسلام والثقافة الغربية (١٠٦) .

من إنصاف الحكام

وإذ يقول الصديق رضي الله عنه عندما ولى الخلافة : إن أحسنت .. فأعينونى . وإن أسأت فقومونى .

وكان يقول : اللهم إنى أعلم بنفسى منهم وأنت سبحانك أعلم بنفسى منى : اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفر لى ما لا يعلمون .

ولكن الفاروق عمر رضي الله عنه يقول لما قال له أحد السامعين : والله لو رأينا فيك إعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، ولما نهره واحد قال له عمر : دعه فليقلها : فلا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نسمعها .

ولقد كان فى ذلك مضرب المثل حتى قال : « رحم الله امرءا أهدى إلىّ عيوبى» .

فهو يعتبر النقد « هدية » ثم يدعو للناقد بالرحمة . ومن بعده جاء حفيده : عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .. والذى عيّن من يراقب أقواله وأفعاله .. ليلفت نظره إلى المرفرض منها .. والمفروض .. المرذول .. والمقبول .

ويعنى ذلك كله : إحياء روح النقد .. ليبحث الفرد عن السلبيات والإيجابيات تفنيداً للأولى .. وتأييدا للثانية .

وبهذا يقع الحاكم بين واعظين : واعظ خارجى يتابع .. ويعاتب .. وواعظ داخلى وهو النفس اللوامة : التى تلاحقه : لم فعلت ؟! ولم لم تفعل ؟!

وهذا هو الفرق الهائل بين مجتمعين : مجتمع المؤمنين : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١] .

ومجتمع المنافقين : يأمرون المنكر وينهون عن المعروف .

وإذا وجد من الحكام ولو واحد فقط ـ من يكره النقد حتى قال : من قال لى: اتق الله .. قطعتُ رأسه !!

فإنه الاستثناء من هذه القاعدة العريضة . التى تفتح صدرها للنقد سبيلا إلى تصحيح الأقوال والأفعال . بدل أن تختفى روح النقد فتتراكم الأخطاء . . ثم يصعب تلافيها . . ثم يكون العمل . . فى الظلام . . بعد أن تعذر العمل فى النور !!

• • •

متى يتوقف الحوار

يقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة: ١٥٠] .

بمعنى أن الحوار إذا وصل إلى طريق مسدود . . . فليتوقف عندئذ فرارًا من الضرر والخطر كما أشرنا .

تحاور داعية يعمل مدرسًا مع زميل له شيوعى يهاجم حجاب المرأة بشدة ولما أحس الداعية أن التباين فى وجهات النظر أبعد من قضية الحجاب لأنه خلاف فى الأسس والمنطلقات ، رأى قفل المناقشة بطريقة حكيمة دون أن يظهر أن ذلك بسبب عجز .

قال له : أنت مدرس رياضيات فأرجو أن تجيبنى عن السؤال التالى : هل يمكن دراسة معادلة من الدرجة الثالثة ، أو حل مسألة رياضية معقدة دون الاتفاق على الأساسيات الأولى فى الرياضيات ؟ قال له : بالطبع لا .

قال الداعية : كذلك حالنا مع الإسلام . لا يمكن أن نناقش قضية الحجاب فى الإسلام إلا إذا اتفقنا على الأساسيات الأولى وهى الإقرار بأن الله موجود ، وأن محمدًا ﷺ صادق أمين وأنه بعث إلينا بالإسلام وكتابه القرآن فإذا أقررت معى بذلك كله . . كان بوسعى أن أناقش معك بقية الأمور ومنها الحجاب .

• • •

افتراء الخصوم

قد نوضح حقائق الإسلام من مثل السماحة والإنصاف . ووحدة الجنس البشرى . . فى محاولة لإزالة الشكوك التى ألصقت زورا بالإسلام فيتقدم المفكر الغربى بأنه أيضًا لديه قيم الديمقرطية والأمانة والنظام . . ثم يزعم بأنها أولى مما نقدمه نحن !!

وإذن . . فهو حوار الطرشان : من حيث لا اتصال بيننا . . كل يغنى على ليلاه .

مع أن ذلك جانب واحد من جوانب القضية وهو مجرد الدفاع عن الإسلام مما ألصق به زوراً .

• • •

حوار الصالحين

يقول أحد الصالحين كان لى صديق : أصلى ركعتين . . فيصلى أربعًا . . فأصلى أربعًا . . فصلى ستا ثم مات . . فرؤى يبكى فلما سئل عما يبكيه ، قال: كيف لا أبكى أخا سبقنى إلى الجنة ؟!

قال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله لأحد تلاميذه : (أصلحك الله لا تكونن منك العجلة ، وثبت فى الفتيا ، فإن أنكرت شيئًا مما أذكره لك فسل عن تفسيره إن كنت مناصحا ، فرب كلمة يسمعها الإنسان فيكرهها فإذا أخذ بتفسيرها رضى بها، ولا تكونن كالذى يسمع الكلمة فيكررها ثم يغتنمها إرادة الشين فيذيعها فى الناس ، ولا يقول عسى أن يكون لهذه الكلمة تفسير ووجه عدل لا أعلمه، أفلا أسأل صاحبى عن تفسيرها ؟ أو لعلها كلمة جرت على لسانه ولم يتعمدها فينبغى لى أن أتثبت ولا أفضح صاحبى ولا أثنيه حتى أعلم وجه كلامه) .

ومن موجبات الحذر أن تستوعب الموقف الذى أنت فيه فلا تسارع إلى

الحديث من غير ضرورة ولا تثير الحضور من غير حاجة.

يقول أبو عمرو بن العلاء : « ليس من الأدب أن تجيب من لا يسألك أو تسأل من لا يجيبك أو تحدث من لا ينصت لك » .

ومن حسن السمت وكمال الأدب ما أشار به إبراهيم بن أدهم : « الحزم في المجالسة أن يكون كلامك عند الأمر والسؤال بالمسألة في موضع الكلام على قدر الضرورة والحاجة مخافة الزلل فإذا أمرت فاحكم وإذا سئلت فأوضح وإذا طلبت فأحسن وإذا أخبرت فحقق واحذر الإكثار والتخليط فإن من كثر كلامه كثر سقطه».

ورحم الله القائل :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

• • •

حوار الشطار

استأجر رجل حمالا ليحمل له قفصا فيه قوارير ، على أن يعلمه ثلاث خصال ينتفع بها ، ورضى الحمال بذلك ، وقال في نفسه : العلم خير من المال ، فلما بلغ ثلث الطريق ، قال الحمال : هات الخصلة الأولى ، فقال له : من قال لك : « إن الجوع خير من الشبع ، فلا تصدقه » ، قال : نعم . . ولما بلغ نصف الطريق قال : هات الثانية ، فقال : «من قال لك إن المشى خير من الركوب ، فلا تصدقه » . قال : نعم ، فلما انتهى إلى باب الدار قال : هات الثالثة ، فقال : «من قال لك إنه وجد حمالاً أجهل منك ، فلا تصدقه » .

فرمى الحمال القفص ، وضرب به الأرض ، فكسر القوارير جميعًا ، وقال : « من قال لك إنه بقى في القفص قارورة ، فلا تصدقه أبدًا » .

وفي حوار بين « ديجول » و « ستالين » بعد الحرب العالمية الثانية حول من

المنتصر ؟

قال ستالين : فى نهاية الأمر .. لا ينتصر إلا الموت ..

وهكذا .. وفى الأقليات الإسلامية .. يثبت الداعية وجوده : بالحوار .. وليس بالسيف .

يقول الكاتب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات : الداعية الحق إذا دخل قرية أشرقت أرضها بنوره ، واهتز أهلها لمقدمه ، فيهرعون إليه ، ويعكفون عليه ، ويجدون فيه الدليل إلى الله ،فمصافحته عهد الله لا ينقص ، وإشارته كلام لا يرد، دعوته بركة لا تنقطع ، يعبر وهو صامت ، ويؤثر وهو ساكن ، والقوم من حوله مطرقون مستغرقون قد فرغت قلوبهم من مطامع الدنيا ، وخلت صدورهم من وساوس الشيطان . ا . هـ .

إن الداعية يقوم بعملية « إنزال من الخلف » : فبينما الأذكياء من حوله يشاهدون الحياة بأبصارهم .. فهو من ورائهم يرى أحداثها ببصيرته .. فى محاولة لحمايتهم من مآسيها كما نحمى حبات عيوننا .. وإذا بالكثرة المدلة بالقوة من حوله : إذا بها نمور .. ولكن من الورق !!

● ● ●

obeikandl.com